الخليل الثابت

لامين الضربي (١)

أيها السادة — انني اشفق من كل قلبي على استاذنا الجليل خليل ثابت بك من هذا الموقف الحرج . فهو لا يملك الآن حتى ان يشيح بوجهه ، على مأثور عادته ، عن الثناء عليه . بل يجلس امامنا اليوم شبه مكتوف اليدين يتلقى كلاماً لا يحبه . لكن الناس يتأرون به لوفائهم من فضله ، صايحين بالفرصة السانحة كما صاح ارخيدس في الحمام . وهكذا الدنيا ايها المعلم الحبيب فورٌ وغور كما يقول العرب

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ويومٌ نساء ويومٌ نسر

انت لا تحب منا ان نقول ما نقول . ولكن ليس للانسان الاّ ما سعى كما قالت الآية الكريمة . ولست تجهل قول الانكليز : الحياة حلوة . ولكن أحلى الثأر أحلى

أيها السادة — قد تعلمتم النوابغ . فما هم وكيف ينشئون . النوابغ في كل جيل افراد سبقوا جيلهم . هم براعم أزهار دق احساسها ورهف فشعرت بالحرارة تدب فيها قبل أمثالها . فتفتحت اكمامها في غير فصلها . لذلك رأينا نوابغ كثيرين يعيشون في وسط غريب يجهلهم وينكر لهم . حتى اذا أدركتهم المنية التي سبقوها في الطريق لم تجد سوى آثارهم الباقية . فنصبت لهم التماثيل ، وأقامت لتكريمهم حفلات ضنّ عليهم جيلهم بها واستفادت من مواهبهم ما لم يكن يريد ، ذلك الجيل الناقل ان يستفيد

والنوابغ يحتملون إعراض الناس عنهم . لانهم يدّخرون في صدورهم كنزاً ثميناً كالذي ادّخره الاسكندر المكدوني ، حين أخذ يوزع ، قبل رحيله الى الشرق ، جميع اشيائه على اصدقائه فقيل له : « وبمَ تحتفظ » ؟ فاجاب : « بالأمل » . والنوابغ ينظرون من عزلتهم الهادئة الى اشهار المجانين في عصرهم دون اكتراث ولا أسف فلكل امرىء يوم . ولكل محدٍ ساعة .

---

(١) ألقاه شباب الندوي الشرقي في القاهرة حفلة تكريم رئيسه خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم وعضو مجلس الشيوخ وهذه هي الخطبة التي خطبها فيها الاستاذ أمين الضربي

قال ديموستين اليوناني لفوسيون : « لا بد أن يهيج الاثينيون يوماً ويقتلوك». فاجابه فوسيون : « ولا بدَّ أن يعقلوا بعد الهياج فيقتلوك »

اننا نقوم اليوم بتكريم رجل عبقري فينا ، لا لنثبت ما هو ساطع كالشمس من اعماله بل لنثبت للقادمين بعدنا الذين هو في الاصل منهم ولهم ، اننا أدركنا شيئاً من قيمة الشعاع الذي انبعث من عصرهم الثاني الى عصرنا الحالي وكنا مستحقين لما أتحنا حظنا الكبير من نعمة التقديم والتأخير

ان بعض اتوابع السالفين عاشوا في عذاب وشقاء . ونحن اليوم نمجد ذكراهم ونقدر رسومهم بالازاهر والرياحين لكننا بمحض هذا الاكرام نحتقر معاصريهم ، ونأسف لنصر عفوهم

فأول عاطفة شكر منا الآن تتجه رأساً الى اللجنة الكريمة التي فكرت في تنظيم هذه الحفلة لانها مكنت بعض أبناء هذا الجيل ، من اثبات عرفانهم للجميل ، وقدرهم لقيمة هذا الاستاذ الجليل . ان بعض وجود الرجل العبقري امتحان لمدارك معاصريه

ان الفصول التي يكتبها أستاذنا الخليل في المقطم كل يوم مدرسة جليلة وفيامين للعقول . فالى جمو القصد فيها واتزان التفكير ، يضاف اتقان غريب لصناعة الانشاء وسيطرة رهيبة على أساليب البلاغة ، تكهرب القارىء وتقوده كالأسير . لا بسلسلة من حديد ، بل بخيط من حرير

وهو فوق ذلك حرٌّ في رأيه مع الانصار والخصوم . رجل صادق صريح ، لا يتشبث بمحال ولا يعاند في الصحيح . يتمسك بالرأي ما دام يراه حقًّا . فاذا لاح لهُ ما يقنعهُ بوجوب التخلي عنه أخلى رأسهُ للحق الذي يعلو ولا يعلى عليه . أما ما يقتضي ذلك من رحابة الصدر ومتانة الاخلاق فلا يمكن ان يجهلوه لان الفضل يعرفه ذووه

يذكرني خليل بك ثابت أطال الله بقاءه بالمرحوم هوراس غريلي محرر جريدة « نيويورك تريبيون» وأحد أساطين الصحافة الاميركية في عصره ، مع فرق بينهما في المسلك الخارجي تولى حفنهُ كرور السنين. فلو كان ثابت مكان غريلي وغريلي مكان ثابت لاضمحلَّ الفرق وزال

يؤثر عن غريلي قوله : « ليس علمي فوق علم الله بما يجوز وما لا يجوز . فكل ما يسمح الله بحدوثه على هذه الارض لا أمتنع عن نشره في هذه الجريدة » .ويؤثر عن أحد كتاب معاصري غريلي وصفه التالي لهُ بطريقة مجونية : « كما رأينا جسماً مقذوفاً من نافذة الغريبون الى الشارع يقيناً انهُ جسم أحد السياسيين جاء يحاول بالرشوة افساد رأي المستر غريلي »

أما خليل بك فانطبع لا يقذف أحداً من نافذة المقطم . لان الايام والاحكام والعادات والاذواق تبدلت بتبدل العصور ، فذهب عهد الفروسية والحماسة ، وحلَّ محله عهد النعومة والكياسة . لكني واثق بأن أستاذنا الكبير سيسألني غداً عن مدفن المرحوم هوراس غريلي أين هو ، لكي يرسل اليه اكليلاً من الزهر

والآن آسف جداً على الكلمات ذات الدلالات الكبيرة كيف أفقدها سوء الاستعمال قيمة معانيها . فلقد كان يكفيني ان أقول عن خليل بك ثابت انهُ صحافي لو بقيت لهذه الكلمة في الاذهان قيمتها الصحيحة

أتيح لي مرة ان أسمع المرحوم تيودور روزفلت أحد أقطاب الولايات المتحدة ورؤسائها الممتازين يخطب في نيويورك مرة فلا يستهل كلامه بمثل قول الزادبو : سيداتي آنساتي سادتي. بل يمنن سامعيه بقوله : « أيها الرجال والنساء » .ولما سئل تعليل ذلك أجاب : « ان جوارحي تهتز كلما ذكرت وحية المرحوم والدي الحبيب قائلاً : « يا بنيَّ كن رجلاً »

فالصحافة ، أيها الرجال والنساء ، ناحية جليلة من نواحي الشخصية البارزة التي اجتمعنا لتكريمها في هذا المساء . ناحية تشمل المعرفة الدقيقة والاطلاع الواسع وتقتضي رحابة متناهية في الصدر لا تضيق ولا تملّ ولا تستهتر . فالجريدة مرآة الحياة . والحياة متشعبة الاطراف . فكلما تقص اهتمام الصحافي بشعبة منها زلت نفسهُ عن الكرسي الجالس عليهِ جسمهُ . ولم يبق صحافيًّا الا مع التساهل

الكتابة يا سادتي شيء . والصحافة شيء آخر. تلك صناعة يتعلمها الطلبة في المدارس . أما هذه فما في المدارس يتعلمونها . ولا بالتمرين يحذقونها . بل هي نعمة يسبغها الله سبحانه على افراد فتحلي ذاكرتهم من كل فن بخبر . وتزينهم بكرم في الاخلاق وسعة في الصدور وشجاعة في النفوس . فلا يضيق بهم بطارق . ولا يضنون بابتسامة على متضايق

اتيحت لي بعض الفرص فراقبت خليل بك ثابت في مكتبه كالاسد في عرينه . تهال عليه الاخبار كالامطار ما بين مبهج يهز الاعصاب . ومقلق يقض المضاجع . ومحزن يقطع نياط القلوب . ومدهش يبلبل الافكار. ومكدر يغور له الدم في العروق . فرأيت الصراحة والسماحة والرجاحة في صدر واسع كالاوقيانس ، تحيش عناصر الحياة فيهِ كالبراكين ، ويبقى وجهه صافياً كالقبة الزرقاء . يعطف على الجميع بارتياح . ويشارك الجميع في الافراح والاتراح . جزى الله والده عميد القوم المرحوم داود ثابت على انحائه الامة المصرية هذا الخليل الثابت

سادتي — سئل نبي العرب الكريم من أشعر الناس . فأجاب « من قال « ومن » . وقد عنى زهيراً بن ابي سلمى صاحب المعلقة الحكيمة التي جاء فيها

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضله على قومهِ يُستغن عنهُ ويذمم

وفي لبنان مثل ساذج بديع يقول : « من كان فيهِ خير . فلقومه خير » . فاسلافنا الجليل غصن من دوحة شريفة في لبنان ، ومن دير القمر بلد الابطال الاشاوس ، نحى بالجنسية المصرية ووقف حياته على خدمة مصر العزيزة . لكنهُ لم ينس من عطفه ورعايته الارض

التي رأى النور فيها والقوم الذين ترعرع بينهم طفلاً ويفعاً . وكيف ينسى وفي عروقه دم طاهر مؤسس على لبن تقي . أظنكم كلكم تقريباً قد عرفتم سياسيًّا فرنسيًّا يدعى المسيو فرنسوى جورج بيكو . سمعته بأذني يخطب مرة في حلب ويقول : « جاءني بالامس من يزعم انهُ يحب فرنسا اكثر من بلاده . فأجبت فوراً ان فرنسا لا تحب من لا يحب بلاده اكثر منها » . رحم الله داود عمون ، وهو ايضاً ابن دير القمر القائل :

أحب بلادي على رغمها ولو لم يكن لي سوى عارها

على ان كلامنا ايها السادة عن بلادنا وبلادكم وبلادهم ، وجميعها بقاع صغيرة كائنة من وطن كبير سيكون ، لن يبقى صحيحاً الى امد بعيد بحول الله

فالدنيا صائرة بطبيعة حالها الى التآلف . هذه الدول العظيمة التي تتناحر اليوم وتتفانى لن تفنى ولن تزول بل تقترب بعضها من بعض . هذه الامبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس عنها . كم وقعت بين احزابها حروب فصيرتها اخوات . وهذه الولايات المتحدة مؤلفة من ثمان واربعين دولة مستقلة بعضها عن بعض في الحدود التي يبيّنها الدستور حتى لا تبغي في قانونها يمنع نشوب الحرب بينها لكنها صارت الآن أدرى بمصلحتها فلا تتحارب

وسيأتي يوم قريب ان شاء الله تزول الفوارق السياسية الحقيرة من بين القلوب الخافقة بدم واحد لتظهر بعاطفة واحدة في بلادنا العربية وتعود اجزاؤها المصرية واللبنانية وغيرها فتلتحم في عهد الفاروق الحبيب . كما كانت ملتحمة في عهد جده الكريم ، محمد علي العظيم ؛ ونجله الفاتح ابراهيم

خليل ثابت بك باتساع صدره لبني وطنه الاول والاخير يعد ركناً من الاركان التي سيقوم اتحاد البلاد عليها . رأيته مرة بعد مرة يستقبل اشخاصاً لا عهد له بهم ، محتاجين الى عونه الادبي . فكنت أتمثل في حميته ورحابة صدره واندفاعه جباراً من جبابرة الزمان يجمع الاقطار بعضها الى بعض . ويحزم القلوب والارواح برابطة المروءة والشهامة

وقد طفت في الاقدار في الارض ، بالطول والعرض ، وسمعت ورأيت ولفيت ورعيت ، فلن أنسى طلاقة وجه الخليل لكل ناشد رأي او طالب مشورة ، بل كما قال زهير :—

ترامى بنا ما جئتهُ منهللاً كأنك تعطيهِ الذي أنت سائله

ولعمري ان ما أقوله الآن فيه لا يجديه ، ولا هو في حاجة اليه ، ولكن نحن العارفين بالفضيلة المستترة نحتاج الى الاشادة بها على السطوح . لان الحقيقة كما قال المرحوم شبلي شميل ان تعمى لا ان تعمى . ورحم الله ولي الدين يكن حيث قال : —

وهذي عمون الله مني براءة فيا أيها الحكام يا أيها الشهدي